كوميديا القلب المعتم

بقلم بدر توفيق

ص ١١ يا اخوتي الذين يعبرون في الميدان مطرقين
لا تخجلوا .. ولترفعوا عيونكم اليّ
لربما اذا التقت عيونكم بالموت في عينيّ
يبتسم الفناء داخلي .. لانكم رفعتم رأسكم مرة !
.....

ص١٣ لا تحلموا بعالم سعيد ...
فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد ..
وخلف كل ثائر يموت احزان بلا جدوى ..
ودمعة سدى !.

« سدى » .. تلك هي الكلمة التي تقتلع القلب عندما تصدر من قلب شاعر في التاسعة والعشرين من العمر فتح عينيه عام ١٩٤٠ على عالم تلجئه الغارات الجوية الى اطفاء النور ويلجيء الخوف اطفاله الى البكاء والصمت المتسائل والاختباء تحت اغطية الفراش ، او تحت الاسرة التي تعقد الرهبة السنة الشهوة في الابدان التي تبحث فوقها عن اللذة هربا من ألم الواقع ومن نصل لحظة تخطف الحياة .

عام ١٩٤٠ والقيصرية القديمة ترتدي زيا جديدا .. النازيون والفاشست .. وتتصادق عداوات الدنيا لتدرأ عن نفسها خطر الاكتساح المرتقب وتكتظ حوائط البيوت ومحطات السكة الحديد بملصقات تقول: « هزيمة الدكتاتوريين محققة » « النصر للحلفاء » وتندفع ملايين الدانات عبر ششخنات مواسير مدافع الدبابات وبنادق الجنود .. وتشهد صحراء مصر الغربية جانبا من أهم جوانب نصر جيش الحلفاء الثامن .. ومقبرة كبيرة تضم اشلاء مدرعات فرقة البانزر صورة من اشجع صور الهزيمة المشرفة والانكسار المتألق لفيلق المانيا الافريقي.

ثم ينحسر مد الحرب العالمية الثانية عن جزر مخيب لامال الانسان .

وتنمو قامة الطفل الصغير الذي يحمل بين جنبيه عطاء الشعر الرباني ليعبر عن النبض الدنيوي المحيط فاذا بكلمة « سدى » تلخص اكتشافه للكائنات .

(ص٧٢) سدى ... سدى
تراجعت في اذني رحلة الصدى
واسقط الرماد من لفافتي
كانت هنا حبيبتي
عيونها محابر الضياع
عام .. وعامان .. مدادها الحزين لم يجف
صلاة هرة الى الشتاء خلف باب
وبسمة كأن نورها على المدى يرف
ها أنذا ...
يد تساندت على الجدار
وخطوة تهبط للقرار
.....

ص ٧٤ ودهشة غريبة وثقب باب لم يعد يضيء
.....

ص ٧٥ لا ترتبك فقد يضيع العمر في هنيهة ارتباك
.....

ص ١٣ الله لم يغفر خطيئة الشيطان حين قال لا
لا تحلموا بعالم سعيد
فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد
وخلف كل ثائر يموت احزان بلا جدوى
ودمعة سدى !!!

* * *

هذا هو أمل دنقل الذي نحن بصدد مناقشة ديوانه « البكاء بين يدي رقاء اليمامة » فما هي تلك المدهشات التي تميز أمل كشاعر ؟

أولا ـ ولعه بحكايات الحياة اليومية الكوميدية النادرة والشائعة لرجل الشارع وهو بذلك يذكرنا بحكاية توماس دكر التي نجدها سنة ١٦٠٣ في صفحات « الطاعون » من « العالم المدهش » حكاية الزوج الذي طلب من زوجته بعد اصابتها بالطاعون ان تعترف له حتى تلاقي ربها بلا ذنوب .. وتعترف الزوجة وهي على فراش الموت بعلاقتها الجنسية بأزواج جاراتها .. ولكنها بعد الاعتراف تشفى من مرضها ويستطيع القارىء تصور ما يمكن ان يحدث بعد ذلك .

« امل » يشدنا الى مثل هذه المطبات الواقعية النادرة والشائعة والتي تكشف الوان الضعف الانساني بكثافة وحصافة اكثر من خلال لغة شعره بكل ما فيها من ايحاء وتركيز .

ص ٦٩ حبيبتي في لحظة الظلام ، لحظة التوهج العذبة
تصبح بين ساعدي جثة رطبة
ينكسر الشوق بداخلي وتخفت الرغبة
أموء فوق خدها
أضرع فوق نهدها
أود لو انفذ في مسام جلدها
لكن يظل بيننا الزجاج والغياب والغربة
.....
وذات ليلة تكسرت ما بيننا حواجز الرهبة
فاحتضنتني ..
لكنها وهي تناجيني ..
سمعتها تناديني ..
باسم حبيبها الذي قد حطم اللعبة !.

ص ٥٠ جاءت الي وهي تشكو الغثيان والدوار
انفقت راتبي على اقراص منع الحمل
ترفع نحوي وجهها المبتل
تسألني عن حل !.
.....
هنأني الطبيب حينما اصطحبتها اليه ..
رجوته ان ينهي الامر .. فثار واستدار
يتلو قوانين العقوبات علي كي اكف القول
.....
افهمته أن القوانين تسن دائما لكي تخرق
ان الضمير الوطني فيه يملي ان يقل النسل
ان الاناث صار غاليا لان الجدب اهلك الاشجار
لكنه كان يخاف الله والشرطة والتجار !.

ثانيا ـ تتبع الجزئيات للوصول منها الى حكم كلي عموده الفقري الموقف الكوميـدي .

ص ٤٨ تدق فوق الآلة الكاتبة القديمـة
وعندما ترفع رأسها الجميل في افتراق الصفحتين
تراه في مكانه المختار ..،
يريح عينيه على المنحدر الثلجي في انزلاق الناهدين
(عينيه هاتين اللتين ..
تغسل آثارهما عن جسمها قبيل ان تنام مرتين)
وعندما ترشقه بنظرة كظيمة
فيسترد لحظـة عينيه : يبتسم في نعومه
وهي تشد ثوبها القصير فوق الركبتين !
.....
في آخـر الاسبوع
كان يعـد ضاحكا اسنانها في كتفيه
فقرصت أذنيه
وهي تدس نفسها بين ذراعيه .. وتشكو الجوع !

* * *

كان « امل » على موعد مع امرأة .. وعندما سألته فـي اليـوم التالي ماذا فعلت بالامس : اجابني

ص١١٧ خرجت في الصباح لم احمل سوى سجائري
دسستها في جيب سترتي الرماديـة
فهي الوحيدة التي تمنحني الحب بلا مقابل !

وعندما سألته عن المصريين القدماء والجدد أجابني :

ص١١٤ رأيتهم ينحدرون في طريق النهر
لكي يشاهدوا عروس النيل عند الموت
في جلوتهـا الاخيرة
وانخرطوا في الصلوات والبكاء
رأيتهم في حلقات البيـع والشراء
يقايضون الحزن بالشواء

ثم قال لي انه تحدث الى الاسماك وان عيونها الميتة القريرةقالت له ان طعامهـا الاخير كان لحما بشريـا :

* * *

ومن هنا ننتقل الى تلك الفئة البشرية التي تؤمن بتناسخ الارواح فنرى روح فنـان الكوميدي العظيم نجيب الريحاني تتخذ من رؤيـة امل دنقل الشعريـة مسرحا جديدا ينبىء عن ميلاد الشاعر الوحيد بيننا الذي يمكنه ان يملأ عروق المسرح الكوميدي بـدماء الكوميديـا الاصيلـة كمـا فعل « بن جونسون »في مسرحية « السيميائي » وكما فعل « شكسبير » بحكايـة « فولستاف » في مسرحية « هنري الرابع ».

ولو ان معاصرة تمت بيـن الريحاني العظيم وامل لحدثت معجزة في الكوميديا المصريـة تعلو بنبضها وادائها على « بارسون آدم » فيلدنج و« دون كويكزوت » بسرفانتيس ومائلت في عمقها وشمولها«فولستاف» شيكسبير ولكن ثقتي بأن الكلمة كانت وستظل دائما هي الاصعب والاندر، فامتلاك « امل » لهـا يجعلني اتفاءل بامكانيـة تواجد ممثل الكوميدي الذي يستطيع ان يصل الناس بها . ويصـح لنـا وقتئـذ ان نزهو كمصريين بأمل دنقل كمـا يختال البريطانيون والايرلنديون بيـن جونسون وبرنـارد شـو .

حياة الشاعر الخاصة واثرها في العمل الفني

ربما لا تكون حياة الفنان الخاصة شيئا يمثل قيمة خاصة يتلون بهـا فنه ، ولكننا في معظم الحالات نجدها كذلك ولكنهـا تبقى دائمة الاثارة لكل من الناقـد والدارس والقارىء .

فنحـن مثلا نعرف كل شيء تقريبا عـن حياة الشاعر الانكليزي « كريستوفر مارلو » (١٥٦٤ ـ ١٥٩٣) الذي مات مقتولا في لحظـة عبث مؤسفـةمع صديق لـه وهو في التاسعـة والعشرين ـ فاذا قرأنا لمارلـو مسرحيتـه « التاريخ المأسوي لدكتور فاوستس » فاننا نجـد الكورس في نهايـة المسرحيـة ينعي الفصن الاخضر الذي كـان يجب ان يكمل نمـوه .. وهي نبوءة شعرية اكتملت بها مطابقة حياة الشاعر في حيـاة ابطاله وموتهم .. فقـد كـان مارلو بهـذا هو الدكتـور فاوستس في طموحه الجامح للوصول الى القدرة الكاملة كمـا كان هو نفسه أيضا « تامبورلين » او تيمور لنك العظيم في عجزه امام الموت.

وفي الجانب المقابل لمارلو نلتقي بشكسبير العالم الذي قلبـت الدنيا حروف كلمـاته رغم قلة ما نعرفه عن حياة ذلك الفنـان العظيم الذي تزوج بدون مراسيم تداركـا للزمن ثموضعت زوجته « آن هاثاواي» مولودهما الاول بعد سبعـة شهور ثم ماتت بعد ذلك تاركـة للعالـم شيكسبير الذي لم يتزوج وبالطبع لا يستطيع ان يعيش اعزب ..وهكذا أصبح السؤال :هل يوجد شخص حقيقي اسمه وليم شيكسبير يؤكـد دائمـا القيمـة العالية الخارقة للمألوف في تنوع وسخاء مسرحياته وقصـائـده ؟

امـل دنقل

وهكذانحن أيضا في التقائنا بالشاعر « محمد امل فهيم محـارب دنقل » الذي يبلـغ طولـه ١٨٤ سم ووزنه ٦٠ كجم والذي ولد فـي ٢٣ـ٦ـ١٩٤٠ في قريـة « قفط » التي تبعـد ٢٠ كم عن محافظة قنا. نراه يرحل الى القاهرة سنـة ١٩٤١ مع أبيه مدرس اللغة العربيةليبدأ تعليمـه في كتاب الشيخ عبده بحدائق القبة مؤديـا التحية لمدرسـة الفصل عند دخولهـا للمـرة الاولى برفع قدمه اليسرى الى رأسه بدلا من يده اليمنى ثم يعـود عام ٤٧ الى قنا فيعلمه ابوه بنفسه منـاهج الروضـة والقراءة الرشيدة ... وتستمر حياة التلميذ الصغير فـي صحبة والده المدرس مليئة بالاضطراب « والعصلجة » ومع مرور الايام وتعددهـا وتبادلهـا تتعدد عقوبات التلميذ الصغير وتتبادله ارجـل السرير الحديدية مشدود الوثاق مضروبا وباكيا .. والشيء الغريب الغامض المثير يكبـر ويمتد آسرا عقله نابضا بين جنبيه .. ويصبـح المزلاج الداخلـي لباب الحمام صديقه الوحيد الذي يدفع عنه شرور الهجوم الابـوي الغاشم على حريته في « الصياغة » وفي الوقوف على رصيف محطـة قنا عام ١٩٤٨ منتظـرا مرور قطار « مولانا المعظم جلالة الملك فـاروق » مضحيـا بعلقه عظيمة من اجل مشاهدة الملك المعظم. ويقرأ أمل دنقل في كتاب ان من حفظ الف بيت من الشعر صارشاعرا او من هنا اكب امل على حفظ الف بيت حتى يكون شاعرا .

الحيـاة والموت :

كان الشعر في حياة امل دائمـا هو الاصرار والنية المبيتـة .. وبدأت رؤيته الكوميدية لحياة الانسان وموته واضحة في اقدامه على الاقتراب من جسد ابيه المسجى على فراش الموت فيفتح عينيهالمغلقتين بالموت ثم يقفلهما ويخرج من غرفـة الميت بلا دموع تسح على الخديـن ليقول للواقفين خارج الباب « لقد مـات أبي » .

كان هـذا في عام ١٩٥٠ ..

وفي عام ١٩٥٧ يحصل على شهـادة الثانوية العامة ثم ينتقل الى القاهرة ليلتحق بقسم اللغـة العربيـة بكلية الآداب ويقضي بها سنتين دراسيتين فاشلتين ويبدأ حياته العمليـة الفاشلة أيضـا كمـوظف بمصلحـة الجمارك ثم يترك العمل متجولا نهاره وليله فـي شوارع القاهـرة وليس سوى الشعـر في رأسه وفي جيوبه وفي حقيبـة ملابسـه الصغيـرة .

من السفح الى القمة

ويبدأ امل صلته الشعرية بالناس . بنشر قصائده على صفحات مجلات وجرائد متواضعة وعندمـا تتعرف به حساسية « أحمد بهجت »

الفنية ينشر الاهرام في يوليو سنة ٦١ قصيدة « بطاقة كانت هنا» التي نجدها في ديوان « زرقاء اليمامة » والتي تستدعي فيوجداننا بعضا من مدينة « احمد عبدالمعطى حجازي » التي تنبض بلا قلب .

هكذا نجد ان « امل » بدأ علاقته الجادة بالشعر منذ عشرسنوات او اكثر قرأ خلالها بوعي شعري وعناية طموحة جميع الشعراء المعاصرين وكثيرا من الشعر القديم والاشعار المترجمة للانجليز والفرنسيين والروس وما عرضته مسارح القاهرة للوركا وسارتر وبونسكو وسعد وهبه ويوسف ادريس ،فهو في الحقيقة قارىء ممتاز تلتقط عيناه جميع حروف الكلمات التي تستهويها على طريق الشعر من نقد ومقال وقصة ورواية ومسرحية وقصيدة .

بعد عشر سنوات من هذه العلاقة الوثيقة بالادب والفن عامة والشعر بوجه خاص يأتي ديوان « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة » فلا نستطيع ان نلتقي به كشاب يافع ولكننا نتعرف به ونحاوره باعتباره رجلا ناضجا فهذا الديوان اذن يحتوي اهم القصائد الدنقليةواكثرها اكتمالا ونضجا فما هي اعمق ملامح النضج او الشخصية الشعريةالتي تميز الشاعر في هذا الديوان ، وما هي بالتالي عيوبه وسقطاته التي لا تغتفر بعد كل هذه السنوات الطويلة من تمرسه في فن الشعر ؟!

ارسطو والشعر

ما زالت تعاليم ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) الناقد الاول في العالم تحتل مكانا هاما في الحياة الادبية والفنية المعاصرة .... وسنأخذ هنا بتقسيمه القديم للشعراء الى نوعين بحسب الاصول الموسيقية للبحر البطولي الطويل النفس المشكل من ست تفعيلات وبحر الحياة بخفته وانكماش عدد تفصيلاته .

ينتمي للتصنيف الاول شعراء « الملحمة المأساة » وينتمي للبحر الثاني شعراء الحياة اليومية الجوالون ..

بالتطورالفنياصبحبطل التراجيدي مننصيبمسرحية شعراء الملحمة المأساة بكل ما فيهم من لا وعي مفكر ومتأمل ومضرج بالدم .

واصبح بطل الكوميديا الراقية والشخصيات المتعاملة معه منصيب مسرحية شعراء الحياة اليومية الجوالين بكل ما فيهم من وعي مفكر ومتأمل لكنه يتفجر ضاحكا في النهاية .

وفي النهاية دائما امل دنقل بالذات ينفجر ضاحكا ولهذا ينتمي الى المجموعة الارسطواليسية رقم ٢ . فامل دنقل ينام فيلوكاندات الدرجة الثالثة ويشارك الطلبة الفقراء مساكنهم .. يجوع في ميدان التحرير المكتظ بسندوتشات الفول والطعمية .. يسهر بكوب شاي من معجب بشعره في سيدنا الحسين .. ويوافق على اقامة مزاد لبيع اول نسخة من « زرقاء اليمامة » تصله من « بيروت » ويقضي ليلة ساخرة حزينة يبدد فيها الجنيهات الستة التي قبضها ثمنا لهذه النسخة .. ثم يقع في غرام السيدة ن .ع ويندهش جدا ويصدم جدا عندما يرفض اهل العروسة زواج ابنتهم من هذا الشاعر الطويل النحيل العابث الساخر الحزين والذي حرمته ادارة التفرغ بوزارة الثقافة من صدقتها الشهرية التي تجود بها على الكثيرين ممن لا يستحقون فنراه بعد ذلك كهلا صغير السن مستغرقا في حل مسابقة الكلمات المتقاطعة على رصيف مقهى ريش .

* * *

ثم نقرأ بعد ذلك قصائد أمل فنرى انفسنا امام شاعر يعرفبوضوح شديد ماذا سوف يقول وكيف ـ بطريقة العلماء ـ يرسم الصورة التشريحية باتقان ينمو بوعي مخترقا القلب عن طريق الراس .

امل دنقل جاسوس شعر محلي ناجح وخطير يمكن ان يكون ضمن هؤلاء الذين يعطون للبشرية جمعاء شيئا هاما وقيما .. الجاسوس يصل الى المغلقات من خلال الاندماج الكامل .. معلومات مطلوبة ومغامر يهوى المخاطرة .. وهكذا أمل مغامر يهوى المخاطرة (في الفن فقط) يفاجئنا بمعلومات مطلوبة للجميع .

تلصص امل دنقل رؤيته الساخرة لتصرفات الانسان التي تثير الضحك من خلال التأمل بقصد تصحيح المجتمع المنحرف .

هذه الرؤية هي التي تضع امل في نقطة بدء تحول جديد في مسرحية الكوميدي الراقية التي لم يكتبها احد بالشعر العربي حتى الان .. اقول هذا رغم ان امل حتى الان لم يستطع ان يتخذ اتجاها واضحا في كوميديا قصائده بين كوميديا الطبائع وكوميديا التقاليد والعادات المكتسبة .. كوميديا الاخطاء التي تولد بهاوكوميديا الاخطاء التي نكتسبها من تقاليد حياتنا الاجتماعية الاولى تتسم بالتفكير العميق او الضحك الذي يجيء نتيجة اكتشاف الانسانلسخرية وعبثية الموقف المعاش وليس الضحك الذي تسببه الرؤية العينية المباشرة وغير المرتبط بالتفكير العميق ولكنهما يشتركان في ثلاث مشابهات اساسية وهي الغرض التعليمي والواقعية والسخرية من سخافات وعيوب وأخطاء العصر .

وقد استطاع امل ان يحقق لنا هذا في « اقراص منع الحمل » و« الجارية الرومية » و« كافور » و« الاشعري » و« السكرتيرة التي تعد اسنان المدير في كتفها اليسرى في عطلة الاسبوع » وعندما يتحول « رأسه الى مذياع ينشر العبارات الحماسية والصداع ».

مبالغات النقاد

أمل دنقل ليس احسن شاعر في جيله كما يدعي بعض النقادوالذي يقول هذا فهو جاهل جدا بالشعر ولم يستطع حتى بينه وبين نفسه ان يجاوب على هذا السؤال البسيط جدا والصعب جدا ما هو الشعر ؟ ومن هو الفنان الذي تطلق عليه صفة الشاعر ؟

أمل دنقل فقط وبالتحديد هو أفضل شاعر مصري استطاع ان ينجح بدون غموض ولا مبالغة في كتابة القصيدة الكوميدية حتىالان ويمكن في المستقبل ان يعقد على جبينه لواء الشعر الكوميديالجديد في هذا العصر اذا استطاع ان يحقق عملا كاملا في مسرحية كوميديا طبائع شعرية . .

تقييم مختزل

وهكذا يمكنا ان نلتقي في امل بتلك الابتسامة الساخرة العريضة بين الآلام المرة كما نلتقي بالفيتوري انسانا ابيض اللون من الخارج .. وابو سنه طائرا يمشي على الارض سعيد بمصيره .. وعبد الصبور اميرا للشجن وملكا للغناء الحزين .. والبياتي مدمنا للاغتراب والاحساس بالمأساة .. ونزار اغنية جميلة للراديو .. وحجازي فارسا حقيقيا في عصر اختفت فيه الجياد والسيوف .. وكمال عمار انسانا متواطئا مع نفسه معترضا على الكائنات .. كما نجد في السياب ثرثرة مغنّ عظيم من لا يسمعه يفوته الكثير .. وعفيفي مطر درويشا له لغته الخاصة .. ثم معين بسيسو مدنيا يستعير ملابس الفدائيين . .وهكذا الى آخر تلك القائمة الطويلة التي تؤكد اننا نعيش في عصر ذهبي للشعر الذي لا تقرأه الجماهير ورغم هذا فسوف يستمر الشعراء لان الشعر كما يقول لورد بايرون هو مقذوفات حمم وبراكين الخيال التي يمنع انفجارها زلزالا ارضيا .

البكاء والضحك

نعود من جديد الى محاولة لتفسير بكاء أمل بين يدي زرقاء اليمامة لنتعرف على ما يراه هو وما يجعلنا نحن نندمج معه في هذه الرؤية من خلال نبوءته الشعرية فنرى علاقة الانسان بالانسان علاقة مزيفة ومغرضة ووقتية .. الابتسامة بكاء مختنق يتخذ شكلا ماديا في انفراج الشفتين .. الضحك الم مروع .. السعادة ملك منزوع العرش وسجين في برج لندن او برج القاهرة .. الرضا

تفاؤل الذي القى بنفسه من كوبري قصر النيل والحب زحام على بضاعة يقف عليها الذباب فرؤية امل للمرأة (ص ٥٣،٦٣،٦٧،٦٩) تجردها من جميع اثواب الرومانسية العفة التي ينفق محمد ابراهيم ابو سنه ايامه على غزلها بدلال ونعومة !!

القصيدة الدنقلية

وهكذا أجد امل دنقل وشعره كلا واحدا لا يتجزأ .. الشاعر والقصيدة .. لكنه في تنوعه وقدرته على استخدام اللاشعور الذي يدرك من خلال الرؤية بالبصر .. وقدرته غير المحدودة على الرؤية المبصرة التي تخاطب الشعور من خلال العقل والمنطق والبلاغة .. هذا التنوع يجعله الشاعر المعاصر الوحيد الذي يمكنه كتابة الكوميديا الراقية اولا وفي المرتبة الثانية الكوميتراجيدي .. وهنا يشهر كمال عمار سيفه الشعري كمحارب محنك « عضمه ناشف » ليثبت باسمه علما على مرتفعات الكوميتراجيك منافسا عجوزا وخطيرا لكهولة امل الشابة .

التراجيدي

اما الترجيديا الخالصة او المأساة التامة والتي يذكي البطل فيها نيران قدره المحتوم ويشحذ السيوف التي تخترق صدره في النهاية وتنتهي بحياته الى الموت الفاجع فهي عطاء نوع اخر من الشعراء الذين ينتمون للقسم الاول من تصنيف ارسطو والذين يفكر الله آلاف المرات قبل ان يجعل قدرهم هذا العشق القاتل والعذاب اليومي الممتع .

شاعر الكوميدى

نعود الى امل دنقل شاعر الكوميدى ذلك النسيج الغريب الذي نلتقي فيه بعاطفة « جون دن » المفكره وبفكره العاطفي لنجد انجسيدا حيا لما قاله برنارد شو من ان الحياة ليست سوى متتالية حماقات مفروضة من السماء . ثم نكتشف تناسخا مدهشا بين امل وبين هنري فيلدنج روائي القرن الثامن عشر الذي كان يتعاطف تماما مع الزنا والاغتصاب والاطفال غير الشرعيين ويقودك من خلال عمل فني مكتمل الى سرداب الضحك على العفة التي تختفي مع دقات الماذون التقليدية.

ثم نقف طويلا امام ما اعلنه « فيلدنج » من ان رواياته « توم جونس » و« جوزيف اندروس » و« جوناثان وايلد » هي ملاحم كوميدى بالنثر في مقابل ملاحم التراجيدي بالشعر . ولقد حقق امل في الفترة الماضية القصيدة الكوميدي بنجاح مؤكد وهذا ما يجعلنا ننتظر منه مسرحا كوميديا كاملا بعد ذلك .

ملاحظات انسانية

عندما التقى بأمل دنقل فانني ارى فيه مأساة العصر الضاحكة او الضحك المأساوى المعاصر .. فهو حملة مركزة للضحك على المحتوى العابث للاشياء ذات المظهر الجاد .. وهو انتقال سريع وحاد من لحظة اليقظة الى لحظة الانتباه .. ومن لحظة الانتباه الى لحظة الغفلة.. نجد في شعره تجزيئا للكل كما نجد تعميما للجزء . وتفيض سطور شعره بهذا التناقض المستفز بين المثال النظيف والواقع الوقح وكشخصية كوميدية ارى فيه الوجه الايجابي لدون كيشوت ..وفي علاقته بالحياة نلتقي به رافعا شعار هوراس « استمتع باللحظة الحاضرة » ولهذا اتجده دائم الافلاس ودائم التجوال لكنه لا يتطفل على مائدة أحد مهما بلغ به الجوع وينفق مسرفا كل ما يصل الى يده .

مصر والدول العربية

اما رأي امل في المشاكل السياسية والاجتماعية لمصر ودول منطقة الشرق الاوسط فتتلخص فيما سبق ان وصف به « جمال الدين الافغاني » داء الشرق وهو اختلافنا على الاتحاد واتحادنا على الاختلاف وأمل كالافغاني في ايمانه بأن الكمال النسبي في البشر لا يكون الا متى كثر الاعلان وقل الكتمان وذلك هو المدخل الصحيح لديمقراطية الرأي وحرية الفكر .

ومن قرأ للافغاني أيضا قوله :

« لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا اداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولاتاريخ لهم اذا لم يقم فيهم ومنهم من يحيي آثار رجال تاريخهم » يستطيع ان يتعرف اكثر على احساس امل دنقل الذي هداه بالموهبة الى معالجته لهذه القضايا الوطنية والانسانية في قصائده المتنوعة :

نجد « امل » ينشب أظافره متشبثا بأرض وطنه مؤمنا بديمقراطية المبنى والمعنى .. المظهر والجوهر . الشكل والمحتوى .. الباب الذي يؤدي الى مكان معد لاستقبال الانسان واحترام ما فيه من شعلة الحياة الربانية وليس لاعتقاله ومصادرة الاكسجين المجاني الذي يمنحه فرصة التنفس الوحيدة .. وان العطاء الدنيوي يجب ان يكون شيئا اخر .. شيئا انسانيا ينبذ الحرب والعداوة .

ص١٢١ امثل ساعة الضحى بين يدي كافور
أبصر تلك الشفة المثقوبة
ووجهه المسود والرجولة
أبكي على العروبة .

ص١٢٢ سئمت من مصر ومن رخاوة الركود
سئمت ـ مثلك ـ القيام والقعود ..
بين يدي اميرها الابله

ص١٢٧ عيد باية حال عدت يا عيد
بما مضى ؟ ام لارضى فيك تهويد ؟
نامت نواطير مصر عن عساكرها
وحاربت بدلا منها الاناشيد
يانيل ما بك هل تجري المياه دما ..
لكى تفيض ويصحو الاهل ان نودوا ؟!

كل هذا يملأ قلبي بالرعب والشفقة على صديقي امل دنقل عندما اذكر كيف مات جمال الدين الافغاني هذا المفكر الشريف مصابا بسرطان في الفم ثم دفن كعامة الناس ومنعت الجرائد العثمانية من نعيه او تابينه حتى جاء « اشارلس كرين » المستشرق الاميركي ١٩٣٦ فبنى للافغاني قبرا يليق به .

معذرة اذا طال بنا الحديث وتشعب .. ولكن ماذا افعل بازاء خصوبة الرؤية الشعرية الدنقلية التي اعتبرها نموذجا وتمثيلا وتقديما حيا وواعيا ومخلصا لروح المصريين التي اشتهرت بالنكتة والفكاهة والحزن الهادىء المتأمل ..

شعر امل هو المسئول عن استدعاء الافغاني والريحاني وبن جونسون وشيكسبير وفيلدنج ودن وذكر وفانتيس وشو وبايرون وارسطو ومارلو والحرب العالمية الثانية وقنا والقاهرة وحجازي وبسيسو وعبد الصبور وكمال عمار وعفيفي مطر والسياب .

ماذا حدث في مصر :

ثم يشدنا الى استدعاء شاعر العامية احمد فؤاد نجم ، فأمل هو الوجه الفصيح المقابل لوجه نجم العامي ، ولكن تميز امل يكمن في قدرته على النفاذ بالفصحى فيما يسهل على العامية ان تعبر عنه .. اما تمثلهما ففي ذلك التناول الكوميدي للقضايا الاجتماعية والوطنية .وفي لا نهائية التجول اليومي والاصرار اللاشعوري على ان يكون الشعر مادة للحياة الامر الذي يجعلهما لا يصلحان لاي عمل آخر .

ولقد كانت قصائد امل وقصائد نجم ظاهرة واحدة انتشرت بعد هزيمة مصر عام ٦٧ بسبب ما فيها من كوميديا تعانق جذور الفكاهة الحزينة المتأملة تستلهمها وتضحك على نفسها من واقعها الذي يفرض الصبر والانتظار فتحاول ان ترخي اعصابها المشدودة المتوترة

بالتنكيت والتبكيت الذي كان عنوانا لاحدى صحف الكوميدي الثائر عبدالله النديم او كما يتساءل نجم في غناء الشيخ امام الحزين « ايه آخر الصبر ياشيخ ايوب ولا متى الحريات مغلوب » او في اغنيته الرائعة عن الغربة والتي يرفض فيها وهو المواطن المصري ان يعيش غريبا في وطنه يرويه عرق الفلاح .

ومن هنا مالت الاذن الى مغناطيسية امل في « زرقاء اليمامة » وموسى الاشعري « ومذكرات المتنبي » « والجرح الذي لا ينفتح » كما استقطبها نجم في « شعبان ابن بهانة » و« توت حاوى » والاغنية الساخرة « يعيش اهل بلدي وبينهم مفيش تعارف يخلي التحالف يعيش » والاغنية التي تثير الاشمئزاز والرهبة « الحمدلله خبطنا تحت بطاطنا » .

وهكذا كانت كلمات نجم في اغاني الشيخ امام قصائد امل هي المرآة التي عكست عرينا وكشفت عوراتنا واوضحت اننا في حالة ارتخاء ولسنا في حالة انتصاب فانفجرنا بالضحك المر والبكاء الفاجع كما ابتسمنا في لحظة اغتسال وجوهنا بالدموع .

اذن فتقييمنا لامل دنقل لا يزيد عن حدود قدرته على التعبير الكوميدي المؤثر والعميق لما في حياتنا الاجتماعية والوطنية من قصور وانكسار وهزيمة وانتظار وهذه هي اعمق ملامح النضج او الشخصية الشعرية التي تميز بها الشاعر في قصائده .

السقطات

انتقل بعد ذلك الى عيوب وسقطات الشاعر الفنية التي تستفزني بقدر حبي له واعجابي به .. فلقد تخطى امل فترة المراهقة الشعرية منذ زمن بعيد . فلقد اصبح له وجهه المتميز بهذه الرؤية الكوميدية والتي تغري من لهم مثل نبضه من الشعراء الناشئين بقراءته جيدا وتتبع خطاه في احيان كثيرة « كفتحي فرغلي » مثلا مما يلقى على عاتقه كثيرا من مسئولية الابداع .

فنحن لا نستطيع ان نتناول قصائد هذا الديوان باعتبارها اول مجموعة من الشعر الجديد يكتبها امل وعلى قدم المماثلة نلتقي بهذه الحقيقة في ديوان « انهار الملح » لكمال عمار وديوان « من دفتر الصمت » لعفيفي مطر وهكذا نجد انهم لا يخضعون لنفس التناول الذي يختلف تماما في المعالجة النقدية لدواوين « الناس في بلادي لصلاح عبدالصبور سنة ٥٧ و«مدينة بلا قلب » لاحمد حجازي سنة٥٩ وايقاع الاجراس الصدئة » لبدر توفيق سنة ٦٥ .

ثم جاء ميلاد زرقاء امل دنقل هذا العام مستفيدا بكل الخبرات السابقة ومن هنا تشكل بصمات الشعراء الاخرين في قصائده قصورا شعريا لا يغتفر كبصمة ادونيس الواضحة في قصيدة « ظما ».

وهنا يرغمنا امل مرة اخرى على استدعاء الشاعر علي احمد سعيد او ادونيس كما يحب ان يسمي نفسه ..

ان ادونيس يمثل حضارة ونضارة وريادة شعرية من نوع خاص منطلقا من القواعد الصاروخية المبكرة في الوان ومعاني حروف « رامبو » وفي اختبارات « جورج باتاي » الباطنية والتي تضع كل شيء تحت الشوال دون استراحة مقبولة ولا جواب قاطع مما يمزق النفس ويشوه الاحساس ويصبح الاختبار الباطني بذلك سلطة عليها ان تكفر عن ذاتها .. وهذا في الحقيقة عالم يختلف عن روح الكوميديا المصرية المتاصلة في وجدان امل .

ثم يخرج لنا ادونيس بعد ذلك من بين حدائد « بيبريفردي » العتيقة .. ومن قرأ تحولات ادونيس وهجرته بين اقاليم النهار والليل فليقرأ معي هذه السطور من « الحدائد العتيقة » الذي صدر عام ١٩٣٧

في أخفى طبقة واطئة من فاقتي
حيث اصطبغت الرذيلة بصبغة الموت
أعيد النغم الى الاسطوانة
.....
كل ما استعادوه من دواليب صدري
هو تلك الساعة التي تدق دون توقف
والوميض المر الذي ينحدر نقطة نقطة
بين اليد والعين .
.....
اذهب الى ما ابعد مادا يدى لحركة الساعة اللاواعية
فضول خارق اعماق قلبي
وانت الذي يتموج على صدغك ضجيج خافت
من فورة الخطيئة حتى نفس الزهور
جيئة وروحة مضيئة
رجوع التعب الى الوراء
والزمان نقطة نقطة يحفر حجرك الاجرد
صدر خربه فولاذ الدقائق
واليد في الظهر التي تدفع الى المجهول

عالم امل دنقل الشعري يفسر لنا المذهلات ويصدمنا بالتناقضات اليومية المعاشة مما لا يتسق مع سقوطه في العالم الادونيسي المستعار من عالم بيير ريفردي الذي يرى ان من خصائص الانسان حاجته التي لا تفسر الى المذهلات وان الشاعر ليس له ما اتفق على تسميته بالجمهور ولا ينبغي خاصة له ان يفتش عن هذا الجمهور .. وهذه كما نرى رؤية قد تتسق مع ادونيس ولكنها تتنافر تماما مع امل .

الانفصام الداخلي :

شيء اخر انتقل اليه في الحديث عن عيوب القصيدة الدنقلية تجعلني أبدأ بالاشارة الى القصيدة القديمة التي كانت تعتني اساسا بوحدة البيت بل وبوحدة الشطره على حدة .. ومن هنا كان تندرنا على امكان وضع البيت الخامس عشر مكان البيت الاول او حذف البيت الثالث والخامس والتاسع دون ان يؤثر هذا على المعنى .

وفي معظم قصائد امل ارتداد الى هذا القصور القديم لان معظمها يقوم على وحدة المقطع فالقصيدة الدنقلية ليست كلا متماسكا ويمكن وضع المقطع الاول محل الثالث او الرابع او حذف بعض مقاطعها دون الاحساس بأن القصيدة قد فقدت جزءا منها .. قليلة في شعر امل تلك القصائد التي تفرض علينا الحفاظ على شكلها العام .. ومن بطن هذا الجسد الدنقلي نخرج بحقيقة هامة وهي انه شاعر قصير النفس يملك القدرة على البناء المتماسك المركز داخل المقطع الذي يعبر عن موقف كامل مستقل بذاته ، وهكذا نرى امل خلف الجهاز المشع ... تبادل قلبه وعقله الاوضاع فأصبح يفكر بقلبه ويحس بعقله .. الامر الذي يؤكد لدي كوميديته وقدرته على الخلق الدرامي المتفوق في هذا المجال .

تبقى لنا بعد ذلك ثلاثة عيوب اخرى في شعر امل :

أولها « الحشو » وثانيها الهبوط بالشعر الى مستوى الكاميرا وثالثها اجهاض الرواية الشعرية للقارىء بشرح التفاصيل التي لا تفسح مجالا لتصوره وشعوره الخاص وهي نفس الذنوب التي كان يقترفها الشاعر الممتاز في القصيدة العمودية الراحلة وعلى سبيل المثال نجد هذا في ص ١١،٣١،٣٩،٩٤،١١٠ .

الشاعر :

آن ان اصل الى نهاية .. وهنا احب ان اقول ان الشاعر تجربة منفردة متميزة أصيلة واعية ولا واعية .. بركان ينفجر من ارض موهوبة مشيدة عصريا بخبرات الماضي والحاضر ورؤيا المستقبل ...، وهكذا ارى امل دنقل شاعرا من هذه النوعية التي لا يسخوبها الميلاد الا نادرا .. ولقد حقق امل هذه الندرة في القصائد رقم ٥،٨،١١، ١٤،١٨،١٩ .

القاهرة

بدر توفيق

المراجع :

١ ـ البكاء بين يدي زرقاء اليمامة (أمل (دنقل)
٢ ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث (أحمد أمين)
٣ ـ الادب الفرنسي الحديث (غايتان بيكون)
٤ ـ الشعر (أرسطو)